



صورة المرأة المسلمة في المسرح الألماني (ليسنج نموذجاً)

د/ وليد حاج علي

(دكتور الأدب المقارن _ جامعة سيدي محمد ابن عبدالله _ فاس _ المغرب)
تاريخ النشر: نُشر إلكترونياً بتاريخ ١٠ مايو ٢٠٢٦ م

الملخص :

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل صورة المرأة المسلمة في المسرح الألماني من خلال مسرحية Nathan der Weise (ناتان الحكيم) للأديب والفيلسوف الألماني Gotthold Ephraim Lessing ، أحد أبرز رموز حركة التنوير الألماني في القرن الثامن عشر. وتسعى الدراسة إلى الكشف عن الكيفية التي قدّم بها ليسنج المرأة المسلمة ضمن بنية درامية تقوم على الحوار بين الأديان والثقافات، من خلال شخصية "سيتا" أخت السلطان Saladin. وتعتمد الدراسة على المنهج التحليلي الوصفي، من خلال تتبع الأحداث الدرامية وتحليل أبعاد الشخصيات ووظائفها الفكرية والجمالية. وقد أظهرت النتائج أن ليسنج قدّم المرأة المسلمة بوصفها شخصية تتسم بالحكمة والذكاء والالتزان، وأسند إليها دوراً فاعلاً في إدارة الحوار وتوجيه الأحداث، بما يعكس رؤية تنويرية منصفة للمرأة المسلمة بعيداً عن الصور النمطية السائدة في بعض الأدبيات الغربية. وتخلص الدراسة إلى أن المسرحية تمثل نموذجاً أدبيّاً رائداً في ترسيخ قيم التسامح الديني والتعايش الإنساني، وتقديم صورة إيجابية للمرأة المسلمة في الأدب الأوروبي.

الكلمات المفتاحية:

صورة المرأة المسلمة – المسرح الألماني – ناتان الحكيم – ليسنج – الحوار بين الأديان.

Abstract:

This study examines the image of the Muslim woman in German theater through the play *Nathan der Weise* (Nathan the Wise) by the German playwright and philosopher Gotthold Ephraim Lessing, one of the leading figures of the German Enlightenment in the eighteenth century. The study aims to explore how Lessing portrays the Muslim woman within a dramatic structure based on interreligious and intercultural dialogue, focusing particularly on the character of Sittah, the sister of Saladin. Using a descriptive-analytical approach, the study traces the dramatic events and analyzes the intellectual and aesthetic functions of the characters. The findings reveal that Lessing presents the Muslim woman as a figure distinguished by wisdom, intelligence, and emotional balance, assigning her an active role in shaping dialogue and directing the course of events. This portrayal reflects an enlightened and fair vision that challenges stereotypical representations of Muslim women in some Western literary traditions. The study concludes that the play constitutes a pioneering literary model for promoting religious tolerance, human coexistence, and a positive representation of Muslim women in European literature.

Keywords:

Image of the Muslim Woman – German Theater – Nathan the Wise – Lessing – Interfaith Dialogue.

المقدمة :

في هذا المقال سنتناول صورة المرأة المسلمة في المسرح الألماني من خلال العمل المسرحي "ناتان الحكيم" "Nathan der Weise" للأديب والفيلسوف الألماني "جوتهولد إفرايم ليسنج"، الذي يعد من أهم رواد حركة التنوير الألماني في القرن الثامن عشر، حيث عرف بنقده البناء والمحايد حول كل ما يتعلق بالفكر والأدب، وهذا النقد يتجسد أيضا من خلال تساؤلاته حول الأديان وطبيعتها الفكرية والعقائدية وما يتجسد فيها من سلوكيات ومبادئ تفرض على من يعتقد بها الإيمان بها. كثرت الدراسات والأبحاث التي تناولت صورة المرأة بصفة عامة والمرأة المسلمة بصفة خاصة، حيث ينظر كل باحث لهذه الصورة من زوايته المعرفية والإيديولوجية، والعمل الدرامي قيد دراستنا يعد بحق مرجعا مهما لأي دراسة تهتم بدراسة صورة المرأة المسلمة من زاوية نظر فيلسوف وأديب وعالم دين عرف بفكره المتنور وانفتاحه على الآخر.

وإذا أردنا معرفة الزاوية التي ينظر منها "ليسنج" لصورة المرأة المسلمة يجب علينا أولا تعقب الأحداث الدرامية لمسرحية "ناتان الحكيم"، ومن تم يمكننا إبداء بعض الآراء حول رؤيته. أحداث المسرحية في مجملها مليئة بالرموز، وغنية بالإشارات التي تحتاج إلى قراءات متعددة، وزوايا مختلفة للتناول، لكن ذلك لم يمنع من القيام بهذه القراءة التي ستساعدنا على معرفة الكثير حول رؤية "ليسنج" لمسألة صورة المرأة المسلمة وكيفية التعامل معها في قالب درامي متميز.

تعتبر مسرحية "ناتان الحكيم" "Nathan der Weise" التي ألفها "جوتهولد إفرايم ليسنج" سنة 1779 واحدة من أهم المسرحيات التي اشتهرت في الثقافة الألمانية والأوربية على حد سواء، وترجع شهرة هذه المسرحية إلى المزج الذي صنعه أحداثها بين شخصيات تنتمي إلى المسيحية واليهودية والإسلام. لم يختر "ليسنج" شخصيات عمله المسرحي اعتباطا، بل كان اختياره نتيجة لدراساته وأبحاثه المتعددة التي تنم على المستوى الكبير من المعرفة بالأديان الذي مكنه من اختيار أسماء شخصيات المسرحية بشكل دقيق، حيث سنرى أن كل من الأسماء التي اختارها لها حمولة تاريخية ودينية. ومن بين الشخصيات الرئيسية التي اعتمدها "ليسنج" في عمله المسرحي نذكر: السلطان صلاح الدين وأخته "سيتا"، و"ناتان" وهو تاجر يهودي في القدس وابنته "ريشا" و"دايا" المسيحية مربية ابنته، وفارس المعبد، وشخصية "الحافي درويش" والبطريق والراهب والأمير¹.

وضع "ليسنج" أثناء صياغته الدرامية تصميما للشخصيات التي سيعتمد عليها، حيث يمكن ملاحظة أنه قد وظف بعض الشخصيات النموذجية في العديد من المشاهد. والعلامة البارزة في اختياره لمهن الشخصيات تكمن في تبيان المكانة التي تحتلها تلك الشخصيات في المجتمع. وفي هذا الصدد يمكن سرد بعض مهن أهم الشخصيات التي اعتمدها "ليسنج"

1 Gotthold Ephraim Lessing - Nathan der Weise- ein dramatisches Gedicht in fünf Aufzügen- Anaconda Verlag GmbH- Köln- 2005- p.9

في عمله المسرحي مثل: التاجر والسلطان وفارس المعبد والأمير والأميرة والخياط والمتسول وربة العائلة (البطريق) والرسام إضافة إلى الدرويش وغيرهم.²

أما في ما يخص الشخصيات المسلمة "صلاح الدين" و"سيتا" و"الحافي" في هذا العمل المسرحي فإننا نجد أن "ليسنج" قد اختار بدقة مهن هذه الشخصيات، حيث إن اختيار مهن الشخصيات لكل عمل درامي له أهمية كبيرة، لأن كل مبدع درامي لا يمكنه إغفال الدراسة العلمية والفنية لقصة أو سيرة كل شخصياته على حدة، وذلك بغية بناء أفكار متماسكة لمشاهد عمله الإبداعي بناء على الحقيقة الأدبية النزيهة. وهذا الاتجاه الأدبي القيم يمكن للمرء أن يجده في العمل المسرحي "ناتان الحكيم".

إن المعرفة المهمة التي استجمعها "ليسنج" حول الإسلام وباقي الديانات من خلال قراءاته الدقيقة، ساهمت بشكل كبير في كتابة عمله المسرحي "ناتان الحكيم"، حيث انعكست معرفته تلك على سرده لقصة كل ممثل من الديانات اليهودية والمسيحية والإسلام.

عندما أراد "ليسنج" وضع تصوره حول شخصية صلاح الدين قرأ العديد من الأعمال الإسلامية الشرقية وكذلك اطلع على العديد من المقالات لمجموعة من الكتاب والمؤرخين الغربيين المعروفين، وذلك بغية تجميع الأفكار التي ستخدم مشروعه الدرامي.

ليس من السهل التطرق للشخصية التاريخية صلاح الدين ووقت ومكان العمل الدرامي في ظل الكتابات المتعددة التي تطرقت لهذه الشخصية، فكل باحث تناولها انطلاقاً من خلفيته المعرفية والاجتماعية والسياسية، لكن ذلك لم يمنع "ليسنج" من تفحص تلك الأبحاث وتناولها بكل جرأة وحياد وتجرد من الذاتية. ومن بين تلك الأبحاث التي اطلع عليها "ليسنج" نذكر مقال "فولتير" المعنون بـ "تاريخ الحملات الصليبية"، حيث قام بترجمته وإبداء رأيه الشخصي حول الموضوع.

خلفت أفكار هذه المقالة أثراً كبيراً آنذاك، في الوقت الذي كان ليسنج يرى فيه أن اللمسة السياسية للكنيسة في شخص البابوات لعبت دوراً مهماً في الاضطهاد اللإنساني وتهجير الأرثوذكسيين لتخريب آسيا.³ إضافة إلى ذلك فقد قرأ "ليسنج" نص "مارن" المعنون بـ "تاريخ صلاح الدين سلطان مصر وسوريا"، حيث اطلع على شجاعة وتواضع أمراء وزعماء المسلمين.

2-Ekiko Kobayashi - Lessings Anfänge- die frühen Lustspiele im Kontext der Zeit. Bochum/ Freiburg- 2003- p. 32

3 Klaus Bohnen - Lessings Nathan der Weise- Darmstadt 1984- p. 184

يصور "مارن" في نصه حول صلاح الدين أنه كان رجلا شجاعاته وجرأته ضد أعدائه، إذ كان يعرض نفسه غالبا للمخاطر. وكان قبل كل معركة متعودا على أن يمتطي حصانه ذهابا وإيابا بين أسياذ المعركة، حيث كان يحمل فقط سلاحه أو درعه الواقي. وفي بداية كل معركة يكون هو الأول في الاشتباكات.⁴

يضيف "مارن" أن صلاح الدين كان لا يحبذ الحرب، وكان دائما ما يرغب في السلم والهدنة، وذلك تنفيذًا لتعاليم الإسلام. وكان يأمر بمعاملة الأسير معاملة حسنة وقراءة القرآن بصوت عال في حضرته.⁵ ويشير "مارن" إلى أن المعاملة الحسنة لـ"صلاح الدين" الإنسانية للمسيحيين كانت تقابلها معاملة سيئة من لدنهم، إذ كانوا كلما أتاحت لهم الفرصة يهاجمونه ويرمونه بالنبال.⁶

يؤكد "مارن" أن صلاح الدين على عكس الزعماء الآخرين لم تكن له حياة الرفاهية، بل كان يرتدي ملابس بالية، وكان يأكل أكل البسطاء. ويرى "مارن" أن الأنشطة الاجتماعية لصلاح الدين ومشاركته في الأعمال المختلفة للعسكريين ساهمت بشكل كبير في فوزه في المعارك وأيضا في محبة شعبه له. ويضيف "مارن" أن صلاح الدين كان يتعامل مع حصار العدو كأى جندي عادي، حيث كان يقوم بتجهيز العتاد وتصويبه مع باقي الجنود، ويصر على أن يكون أول من يقوم بالهجوم، حيث كان يريد أن يعطي المثل والقوة في الشجاعة والقناعة والصمود والصبر، كل ذلك أراد أن يرسخه في مبادئ شعبه.⁷

أثناء بحث "ليسنج" عن المراجع التي خصت شخصية صلاح الدين بالدراسة والتحليل لاحظ أن المستشرقين الغربيين وكتاب القرنين السابع عشر والثامن عشر أجمعوا على مدح هذه الشخصية البطلة بأحسن العبارات، وكان ذلك نتيجة لسخائه وكرمه وإصراره على تطبيق العدالة.⁸ ومن بين تلك الأعمال التي درسها "ليسنج" نذكر عمل "أولفرت دابير" المعنون بـ"وصف الشرق"، الذي اكتشف فيه العديد من الكتابات المقدسة.

كخلاصة لمجهوداته في البحث والتنقيب أقام "ليسنج" أخيرا مشروعه من خلال صورة صلاح الدين في عمل "فولتير"، حيث تضمن مشروعه العديد من الصفات التي ترجمها "ليسنج" من مقالة "فولتير" من قبيل الكرم وتسامح الأديان والعدالة الاجتماعية تجاه الأديان الأخرى.⁹

4 Marin - Geschichte Saladins- Sultans von Ägypten und Syrien- zwei Teile- Aus dem Französischen übersetzt von E. G. Küster- Zelle 1761- Bd 2- p.83

5 Ibid(p. 82

6 - Marin - Geschichte Saladins- Sultans von Ägypten und Syrien- p. 82

7 Ibid- p. 82

8- Karl Josef Kuschel - Von Streit zum Wettstreit der Religionen- Lessing und die Hreusforderung des Islam- Düsseldorf- 1998- p. 247

9 Ibid- p. 247

تأثر "ليسنج" كثيرا بشخصية صلاح الدين بعد ترجمته لمقالة "فولتير" "تاريخ الحروب الصليبية"، حيث أكد على فصل سلطة الدين عن السياسة، وهذا ما جسده "ليسنج" في عمله المسرحي من خلال التسامح الإنساني المثالي الذي ميز سلوك صلاح الدين حيث عفا عن المسيحي "فارس المعبد".¹⁰

يرى "ليسنج" أن صلاح الدين كان يتمتع بخصال الرأفة والعفو تجاه غير المسلمين، ويضيف كذلك أنه عند حكمه في القدس كان يلبي رغبات النساء اللائي يطلبنه في شأن إخلاء سبيل أزواجهن وأبنائهن وآبائهن. وهذه الخصال المتمثلة في التسامح والعفو وتقبل الآخر يمكن استخلاصها من حديث صلاح الدين مع "ناتان، حيث يقول له: "ناتان، عزيزي ناتان (...). كن صديقي".¹¹

تعامل "ليسنج" مع شخصية صلاح الدين من خلال مراعاة السيرة الذاتية الحقيقية لهذا القائد، وذلك من أجل تصوير مميزاته السياسية والإنسانية تصويرا لا يجانب الصواب، وقد نجح في ذلك إلى حد كبير حيث تقول "زكرد زوسه فيدلر" "Sigrid Suesse Fiedler" " في هذا الصدد أن صلاح الدين أثبت استقامته وعفته سواء على مستوى الحكم السياسي أم على المستوى الإنساني، وترى أن صلاح الدين السلطان مثله مثل صلاح الدين الإنسان، وتضيف أن هذه الشخصية جسدت التوافق بين الأخلاق والسياسة، بل بفضلها تغلغلت الأخلاق في السياسة.¹² وهذا ما يمكن ملاحظته في مسرحية "ناتان الحكيم" من خلال الحوار الذي دار بين السلطان صلاح الدين والتاجر اليهودي "ناتان" عندما أراد هذا الأخير أن يعرض النقود على السلطان:

ناتان: "جئت للتو من رحلة سفر بعيدة، التي جمعت فيها ديونا كثيرة. تقريبا عندي الكثير من المال نقدا. (...). هنا كنت أظن، ربما تستطيع أن تحتاج شيئا، لأن فعلا هناك حرب مالية وشيكة تتطلب الكثير".

صلاح الدين: "ناتان! لا أريد أن أسأل؟ هل كان الحافي عندك، لا أريد أن أتفحص، هل لديك شك، في أن تقوم بهذا المعروف بكل حرية (...). أنا مهم بالنسبة له- سامحني!- إذن بماذا تساعد/ علي أن أعترف لك، أنني أوشكت".¹³

بعد دراساته المتعددة للمراجع السالف ذكرها قرر "ليسنج" في عمله الدرامي أن يجمع بين السلطة السياسية والدينية للسلطان صلاح الدين وبين العادات الإسلامية في بيت المقدس. ومن بين أهم المشاهد التي وظفها "ليسنج" لتبيان السلطة السياسية لصلاح الدين نذكر القرارين السياسيين المهمين في المسرحية:

فأما القرار السياسي الأول فيتمثل في تعيينه ل"الحافي درويش" أمينا على خزينته، هذا القرار الذي أدهش كثيرا "ناتان" التاجر اليهودي، حيث يقول هذا الأخير ل"الحافي درويش":

10 Gotthold Ephraim Lessing - Nathan der Weise- Ein dramatisches Gedicht in fünf Aufzügen- p. 18

11- Ibid- p. 88

12-Sigrid Seusse- Fiedler - Lessings Nathan der Weise und sein Leser- Eine wirkungsästhetische Studie- Stuttgart 1980- p. 248

13- Gotthold Ephraim Lessing - Nathan der Weise- Ein dramatisches Gedicht in fünf Aufzügen- p. 89

ناتان: "الآن نتفاهم مع بعضنا البعض إلى حد ما! هنا يوجد تمييزا. أنت؟ لماذا لست أنت؟

الحافي درويش هو الكل،/ ما باستطاعتي فعله، دائما مرحبا به (...). لكن الحافي رجل السلطان القوي.¹⁴

أما القرار السياسي الثاني فيتمثل في إطلاق سراح كل السجناء الذين تقدمت أسرهم بالتماس إلى السلطان صلاح الدين، وكان صلاح الدين بعد الانتهاء من مهامه السياسية والإنسانية يفضل لعب الشطرنج مع أخته "سيتا" وتبادل أطراف الحديث حول كل ما يهم مصالح المجتمع.¹⁵

شخصية "الحافي درويش"

يعتمد "ليسنج" على شخصية مسلمة أخرى تتمثل في "الحافي درويش". وتتميز هذه الشخصية المركبة بتسامحها تجاه الآخر، وبغلوها في الإيمان، وهذا ما يوضح لنا سبب اختيار "ليسنج" هذه الشخصية بهذا الاسم بالضبط. وإذا أردنا استجلاء دلالة هذا الاسم الذي اعتمد عليه "ليسنج" في عمله المسرحي فيمكن القول أن كلمة "الحافي" تعني في الثقافة العربية الإسلامية حافي القدمين. أما كلمة درويش فتحيل على المنتمي للصوفية، حيث إن الذي يتشبع بالطريقة الصوفية يريد أن يعيش (فقيرا)، وهذا ما يصطلح عليه "الدرويش".¹⁶

لم يكن اختيار "ليسنج" لاسم "الحافي درويش" من باب المصادفة، بل كان نتيجة لدراساته المتعددة حول الإسلام، ومن بين تلك الأبحاث نجد تأثيره بنظرية "اسبينوزا" حول مسألة وجود الله. هذه النظرية التي تقوم حول الآية الكريمة: "ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد".¹⁷ انطلاقا من هذه الآية قام "اسبينوزا" بتطوير نظريته حول مسألة وجود الله، حيث يخلص إلى أن "الله هو الكل والكل هو الله" "Gott ist alles und alles ist Gott".¹⁸ هذه النظرية تتقاطع مع شعار المتصوفة المتمثل في "وجود الله فقط، فهو في كل الأشياء، وكل الأشياء فيه".¹⁹ كل ذلك ساهم بشكل كبير في اختيار "ليسنج" اسم "الحافي درويش"، لأنه كان على علم أن الصوفي تعني في الإسلام الصفاء "Reinheit" والحكمة "Weisheit". لذلك اعتمد "ليسنج" على شخصية "درويش" في دور المؤتمن على خزينة صلاح الدين.

يلعب "الحافي درويش" في مسرحية "ناتان الحكيم" شخصية الرجل المضحك، الذي قضى حياته كرجل فقير صادق متسول، تجمع به "ناتان" لعبة الشطرنج"، إلى أن يعين كمؤتمن على خزينة صلاح الدين. هذه الصفات العظيمة التي

14- Gotthold Ephraim Lessing - Nathan der Weise- Ein dramatisches Gedicht in fünf Aufzügen- p. 25

15- Pelster Theodor- Lektüreschlüssel- G. E. Lessing- Nathan der Weise- Stuttgart- 2005- p. 22f

16 - Hughes Thomas Patrick - Lexikon des Islam- München- 2000- p. 683

17 - سورة "ق"- الآية 16

18- Schilson Arno- Geschichte im Horizont der Vorsehung- G. E. Lessing zu einer Theologie der Geschichte- Mainz- 1974- p. 216

19- Hughes Thomas Patrick - Lexikon des Islam. p. 683

وظفها "ليسنج" لمميزات ممثلي الإسلام ساهمت في تطور الفضيلة والتسامح كمواضيع عقلانية في عصر التنوير، التي اشتغل عليها بتفان في عمله المسرحي.

إن تعيين "الحافي درويش" كأمين خزينة صلاح الدين كان بمثابة نقطة تحول في حياته، حيث كان يدرك فقط الكيفية التي يجب أن يتعامل بها المرء فيما يخص التسول. إذ يقول "الحافي درويش" لصديقه ناتان: "تحضرونها فعلا معكم في الحال. الحقائق؟ (...). الآن، النقود/ التي يجب عليكم أن تقدموها لصلاح الدين".²⁰

أرسل "الحافي درويش" ل"ناتان" بعد اتفاق صلاح الدين وأخته "سيتا" من أجل اقتراض المال. وهذا الدور الذي أعطاه "ليسنج" لشخصية "الحافي درويش" كان من أجل الرفع من قيمته الإنسانية، بل لعبت شخصية "الحافي درويش" دورا مهما في فكر "ليسنج" الذي كان يفكر في عمل آخر يتطرق فيه لشخصية "الحافي درويش" كشخصية رئيسية.²¹

إضافة إلى تلك المراجع التي استقى منها "ليسنج" معارفه حول تركيبة شخصية "الحافي درويش" يمكن ملاحظة أنه اعتمد، وبشكل كبير، على عمل "كريستوف مارتن فيلاند"، الذي تطرق إلى شخصية الراهب المسلم من خلال عمله "تاريخ دنيشمند الحكيم" (1775).²²

تأثر "ليسنج" كثيرا بشخصية الراهب المسلم في عمل "فيلاند"، حيث عمل على تطوير هذه الشخصية من حيث الاسم "الحافي درويش" وكذلك من حيث المحتوى، حيث نجد أن شخصية "الحافي درويش" لعبت دور الزاهد الصادق المتسول والمؤتمن على خزينة صلاح الدين فيما بعد، وكذلك صديق "ناتان"، وفي عمل "فيلاند" نجد أن شخصية الراهب المسلم لعبت دورا مماثلا، لكن بمهن مختلفة، حيث كان الراهب المسلم راعيا وحاميا للأمانة ومديرا للدرأويش ثم عطوفا في معاملته مع الغير، إضافة إلى أنه كان صديقال "كلاندر".²³

من الواضح أن "ليسنج" قد اعتمد على شخصية "الحافي درويش" الذي كان يؤمن بحياة زهيدة بسيطة متنورة، وهي الأفكار نفسها التي كان يؤمن بها أدباء وفلاسفة عصر التنوير، حيث كانت أفكارهم تصب في كل ما هو عقلائي وفاضل. واستخدام "ليسنج" لشخصية "الحافي درويش" كان الغرض منه إرسال إشارات منتقدة لحياة الرفاهية التي كانت قائمة في البلاطات في عصره، هذا من جهة، أما من جهة ثانية فقد أراد أن يبين الدور المهم الذي لعبه

20- Gotthold Ephraim Lessing - Nathan der Weise- Ein dramatisches Gedicht in fünf Aufzügen- p. 65

21- Karl Josef Kuschel- Von Streit zum Wettstreit des Religionen. p. 231

22- Ibid- p. 232

23- Wieland Christoph Martin- Geschichte des Weisen Danischmend – 1775- (C. M. Wieland: Sämtliche Werke- hrsg. V. Hans Radspieleru- Neu-Ulm- Bd. 8- Hamburg 1984- p. 90 ff

(الدررايش) كمتثلين للحركة الصوفية في القرنين الثامن والتاسع،^{٢٤} الذين جسدوا الاتجاه الديني الفاضل، وهذا ما نتجت عنه صورة إيجابية حول التسامح المثالي والإنسان الزاهد.

إضافة إلى ذلك فقد جسدوا أيضا الطريقة المثالية في حب الإله وحب الناس واحترام التجارب الصوفية للديانات الأخرى، وإيمانهم بالأفكار التحررية والمتسامحة تجاه غير المسلمين.^{٢٥} وهذا النموذج جسده "ليسنج" في شخصية "الحافي درويش" حيث يقول "ناتان" ل"الحافي درويش": "كيف أسميه؟ المتسول الحقيقي هو فعلا فريد ووحيد الملك الحقيقي".^{٢٦}

شخصية الحكيم "ناتان":

إن اختيار "ليسنج" الحديث عن صفة "الحكيم" لم يكن اعتباطا أو من باب الصدفة، بل كان ذلك عن طريق قراءته للعديد من الأعمال مثل "جستا رومانوروم" "Gesta Romanurum" و"ديكامرون" "Decamerone" و"انضباط كليريكاليس" "Disciplina Clericalis" التي تطرقت لمختلف الأعمال العربية التاريخية ونشرها وترجمتها.^{٢٧} تطرقت هذه الأعمال لصفة الحكماء بالنسبة للآخرين والطريقة النموذجية التي يتعاملون بها بحكمة في كل ما يتعلق بالحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، حيث جاء فيها أن العرب قديما يسمون الطبيب والرجل الذي يلقن المعرفة للآخرين ب"الحكيم"، حيث يقول "هوجست طوماس باتريك" في الموسوعة الإسلامية أن كلمة "Weise" تقابلها "الحكيم" في العربية، ويضيف أن عبارة "الشخص الحكيم" تعني الفيلسوف أو الطبيب وكلمة الحكيم هي اسم من أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين التي تستعمل في الكثير من السور في القرآن، ويعطي مثلا على ذلك بسورة الممتحنة الآية الخامسة، حيث يقول سبحانه وتعالى: "ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم" "Du bist der Mächtige und der Weise".^{٢٨}

إن تاريخ تقاليد الشرق العربي الإسلامي يمكن للمرء أن يلمسه في العديد من الأعمال الأوروبية التي اعتمدها "ليسنج" في عمله الدرامي، حيث أعطى صفة "الحكيم" ل"ناتان" انطلاقا من قراءته للعمل الأدبي "انضباط كليريكاليس" للكاتب الاسباني "بتروس ألفونسي" "Petrus Alfonsi" الذي استعمل هذه الصفة انطلاقا من معناها العربي "الحكمة".^{٢٩}

24- Karl Josef Kuschel- Jud, Christ und Muselman vereinigt- p.99

25- Frembgen J.- Derwische- Gelebter Sufismus- Köln- 1993- p. 16

26- Gotthold Ephraim Lessing - Nathan der Weise- Ein dramatisches Gedicht in fünf Aufzügen- p. 68

27- Alfonsi Petrus- Die Kunst, vernünftig zu leben (Disciplina Clericalis)- Dargestellt und aus dem Lateinischen übertragen von Eberhard Hermes- Zürich und Stuttgart- 1970- p. 16ff

28- Hughes Thomas Patrick- Lexikon des Islam- p. 274

29- Alfonsi Petrus- Die Kunst, vernünftig zu leben (Disciplina Clericalis)- 1970. p. 138

إن الملاحظ في الأعمال الأدبية للكتاب الألمان الذائعي الصيت مثل "جوته" و"ليسنج" و"فيلاند" هو استعمالهم للأسماء الأصلية لممثلي الشرق، حيث تدل تلك الأسماء بشكل قاطع عن أصلها العربي الإسلامي.³⁰ وهذا ما يمكن ملاحظته في أعمال "ليسنج" التي استعمل فيها الأسماء العربية الإسلامية الأصلية عمداً مثل اسم "محمد" "Mahamet" و"فاطمة" "Fatime" و"مروان" "Mervan" و"صلاح الدين" "Saladin" و"سيتا" "Sittah" و"الحافي درويش" "Al-Hafi Derwisch" و"الملك" "Melek" ... ، لأنه كان يدرك تمام الإدراك أن لهذه الأسماء أو شكلها الخلفية الإسلامية، وذلك ما سيساعده في على إيصال أفكاره للقارئ والجمهور. وفي السياق نفسه نجد أن "ليسنج" في عمله الدرامي قد استعمل اسم "ناتان الحكيم" انطلاقاً من دراسته كعالم دين Theologe للقصتين التاريخيتين لكل من "لقمان الحكيم في القرآن و ناتان الحكيم في التوراة. إضافة إلى ذلك ف"ليسنج" أعطى صفة "الحكيم" ل "ناتان" في عمله المسرحي انطلاقاً من اطلاعه على المجموعة الحكائية ألف ليلة وليلة من خلال العملين الأدبيين "انضباط كليريكاليس" و"ديكامرون".³¹

لا يختلف اثنان على أن ألف ليلة وليلة كان لها أثر كبير على الأدب العالمي عامة والأدب الألماني خاصة، حيث نجد ذلك الأثر في العديد من الأعمال الأدبية للروائي الألماني "ليسنج"، الذي اضطلع على هذه القصص الحكائية كما سلف ذكره من خلال العمل الأدبي "ديكامرون" "Decamerone" للكاتب الإيطالي "بوكاشيو" "Boccaccio"³² و"انضباط كليريكاليس" "Disciplina Clericalis" للكاتب الإسباني "بتروس ألفونسي" "Petrus Alfonsi"³³. انطلاقاً من تأثره بتلك الأعمال الأدبية وإبداء رأيه فيها، فقد استعمل "ليسنج" حكاية "الخواتم" التي أراد من خلالها أن يبين للقارئ والجمهور كيف ينبغي أن يكون العالم، وبشكل آخر كيف يعيش العالم حقيقة، وكيف يمكن تقليص الهوة وتقريب الآراء.³⁴ ولفهم تلك التصورات التي أراد "ليسنج" أن يبينها في عمله الدرامي "ناتان الحكيم" يمكننا الإتيان بأهم أحداث المسرحية وتفاعل الشخصيات الممثلة للديانات الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام.

"Sittah" "سيتا" كأميرة وامرأة مسلمة:

ميز "ليسنج" العنصر النسوي في عمله المسرحي بخاصية الحكمة والفضيلة، وهذا التميز لم يكن بمحض الصدفة بل كان انطلاقاً من انتقاده للرأي والتصور الذي كان سائداً عن المرأة، والذي كان يبغض دور المرأة في الحياة الاجتماعية

30- Birus Hendrik- Poetische Namensgebung zur Bedeutung der Namen in Lessing -Nathane der Weise- p. 104

31- Irwin Robert- Die Welt von Tausendundeiner Nacht- Aus dem Englischen übersetzt und für den deutschen Leser ergänzt von Wiebke Walther- Frankfurt am Main/ Leipzig- 1997. p. 208

32- Eitel Wolfgang- Die romanische Novelle- Darmstadt- 1977- p. 45

33- Göbel Helmut- Bild und Sprache bei Lessing- München- 1971- p. 161

34- Schilson Arni- auf meiner alten Kanzel- dem Theater- Über Religion und Theater bei Gotthold Ephraim Lessing- Göttingen- 1997- p. 449

مقارنة مع الرجل، وذلك بسبب إحساسها وعاطفتها تجاه الدين والإلهام.³⁵ لكن "ليسنج" جاء بتصوير مختلف حيث انتقد بشكل كبير التصورات والانطباعات التي كانت سائدة حيث يقر بأن المرأة تجسد الإنسان الطبيعي العقلاني،³⁶ وهذا ما يتضح من خلال حوار "سيتا" و"ريشا":

سيتا: لا فعلا ! لا أميرة ! سميني "سيتا" صديقتك، أختك.

سميني أمك ! أستطيع أن أكون أيضا كذلك.

شابة ! ذكية ! متدينة ! ما لا تدركيه كله ! لا يجب عليك أن تقرئيه كله !³⁷

إضافة إلى انتقاد "ليسنج" الصورة السلبية التي كانت سائدة عن المرأة فقد انتقد كذلك وضع المسرح عموما وخاصة طريقة التعامل الدرامي مع طبقة الأمراء في المجتمع التي كانت تصورها تصويرا تقليديا مثاليا، هذا التصوير تسيطر عليه معاناة هذه الطبقة. وهذا النموذج الذي انتقده "ليسنج" بشدة جعله يتخذ اتجاها مضادا، حيث صور ممثلي الإسلام من خلال صلاح الدين وأخته "سيتا" في هيئة البرجوازيين تصويرا إيجابيا في كل عمله المسرحي. وهذا الاستعراض الدرامي لطبقة الأمراء المسلمة كان بمثابة وسيلة استخدمها "ليسنج" لانتقاد حياة البلاط في أوروبا آنذاك، وغايته هذه تأنت له من خلال استعانه بالأحداث التاريخية والدينية والسياسية وأيضا الإنسانية في سلوك وفكر ممثلي البلاط المسلمين.³⁸

عبر "ليسنج" في عمله المسرحي "ناتان" عن البعد الخاص للطبقة الإنسانية من خلال سلوك الإخوة لممثلي الشخصيات المسلمة "صلاح الدين" و"أخته" "سيتا"، وذلك في إطار عرض دراما العلاقات العائلية وتبادل الأدوار فيما بينهما في أحد عشر مشهدا. لعبت "سيتا" دورين مهمين في مسرحية "ناتان"، حيث نجدها تارة تلعب دور الشريك في الحوار في عدة مشاهد، وتارة أخرى تلعب دور المستشار الناصح السياسي لأخيها "صلاح الدين"، وذلك للفتنة والحكمة الرزينة التي تتميز بهما.³⁹

احتلت مسألة حقيقة الأديان مكانة مهمة بالنسبة ل"سيتا"، وهذا ما جعل صلاح الدين يتشاور معها في العديد من الأمور السياسية وخاصة الدينية، حيث طلب رأيها في قضية استدعاء "ناتان" التاجر اليهودي قصد التحاور،⁴⁰ وبناء على نصيحتها فقد استدعى صلاح الدين كلا من "ناتان" و"فارس المعبد"، وأثناء اللقاء جلست "سيتا" في الوهلة الأولى

35- Hannelore Scholz- Widersprüche im bürgerlichen Frauenbild- zur ästhetischen Reflexion und politischen Praxis bei Lessing- Friedrich Schlegel und Schiller- Weinheim- 1992- p. 45

36- Ibid- p. 81

37- Gotthold Ephraim Lessing - Nathan der Weise- Ein dramatisches Gedicht in fünf Aufzügen- p. 145

38- Karl Josef Kuschel- Jud- Christ und Muselman vereinigt- Lessings Nathan der Weise. Düsseldorf- 2004- p. 239

39- Mann Otto- Lessing- Sein und Leistung- Hamburg- 1949- p. 369

40-Pelster Theodor- Lektüreschlüssel- G. E. Lessing- Nathan der Weise- p. 23

في غرفة بجانبهم إلى أن شاركت في المحادثة لاحقاً، حيث لعبت دوراً مهماً في الانفتاح وتقبل الآخر، وهذا ما أبهج "ناتان" التاجر اليهودي، حيث لم يكن مضطراً للدفاع عن ديانته اليهودية كدين حقيقي.^{٤١}

إن استعمال "ليسنج" لاسم "سيتا" أخت صلاح الدين راجع إلى اعتماده على بعض المراجع التاريخية، لكن ما يجب التأكيد عليه هو أن اسم "سيتا" أو أي اسم مشابه ليس معروفاً في الثقافة العربية ولا في الثقافة الفارسية.^{٤٢} لكن إذا ما تتبعنا الخطوات والمراجع التي تتبعها "ليسنج" في اختياره لهذا الاسم فإننا سنجد أنه قد اعتمد على مراجع تاريخية مختلفة ذكر فيها اسم "سيتا" "Sittah". هذه المراجع تطرقت إلى شخصية واحدة لكن بأسماء مختلفة، حيث نجد مثلاً من كتب اسم "Sittolsyama" "ستلسياما" وهناك من ذكر اسم "Sittalscham" "ستلشام" وهناك من ذهب إلى كتابة اسم "Sittal Scahm" "ستل شام"، وهناك من اعتمد اسم "Sillah Alscham" "سيلله أشام".^{٤٣} ومن بين هذه الأسماء التي ذكرت في المراجع التاريخية فإننا نجد أن "ليسنج" قد اهتدى عن طريق سوء فهم إلى استعمال الشكل المختصر لاسم Sittah Alscham أي Sittah "سيتا".

لكن إذا بحثنا عن الاسم الحقيقي لأخت صلاح الدين فإننا سنجد أن أبا الفداء قد تطرق لهذا الاسم حيث إن الاسم الحقيقي هو "ست الشام"، وهذا مرجع قد اطلع عليه "ليسنج" من خلال ترجمة المستشرق الألماني "رايسكه" "Siit es-Scham" "ست الشام" لطبعة أبي الفداء. وهذه الترجمة ساعدت "ليسنج" في استخدام بعض الصفات التي تضيف على اسم "ست الشام" طابع الأميرة أو الملكة التي كان يصف بها أخت صلاح الدين في عمله المسرحي "ناتان".^{٤٤} إضافة إلى ذلك، وارتباطاً بسبب تسمية "ليسنج" بطلة مسرحيته "سيتا"، فإننا نجده قد اعتمد على بعض المراجع الشرقية التاريخية التي تطرقت لسيرة الخلفاء، حيث نجده قد تأثر بالأسماء التي وجدها في هذه المراجع وصورها في عمله المسرحي تصويراً تشبيهاً. ونذكر من بين تلك الأسماء التي اطلع عليها مثلاً: "Sitt-Zubaidah" "ست الزبيدة" و"Siit Al-Meluk" "ست الملوك"، اللتين كان لهما مستوى رفيع من حيث العلم والمعرفة في الأمور الدينية والدنيوية. وإلى جانب تلك المراجع التي سلف ذكرها فإننا نجد أن "ليسنج" قد اعتمد، وبشكل كبير، في استعماله لاسم "سيتا" على كتاب "مارن" "Marin" "حكاية صلاح الدين" "Histoire de Saladin" (١٧٥٨)، الذي من خلاله اقتبس مواصفات وطباع وحوارات "سيتا" وأخيها صلاح الدين.^{٤٥}

٤١- klaus Bohnen - Lessings Nathan der Weise- p. 65

٤٢- Birus Hendrik- Poetische Namensgebung zur Bedeutung der Namen in Lessings - Nathan der Weise- Gottingen- 1978- p. 139

٤٣- Ibid- p. 139

٤٤- Ibid p .140

٤٥- Marin: Geschichte Saladins, Sultans von Ägypten und Syrien- p. 319

تمثل "سيتا" في مسرحية "ناتان" شخصية المرأة المسلمة الذكية التي تتميز بالحس الاجتماعي والسياسي على حد سواء، فأما الجانب الاجتماعي فيتمثل في استعدادها الدائم لمساعدة الآخرين وخصوصا الفقراء منهم. أما الجانب السياسي فيتمثل في الخطط والمشاريع السياسية التي كانت تصممها لأخيها صلاح الدين، حيث توجت تصوراتها في ربط صلة القرابة بين العائلتين الحاكميتين الإسلامية والمسيحية، هذا الربط الذي كان عبارة عن حلم تحقق.^{٤٦} في مقابل ذلك يستمع صلاح الدين لرأي أخته "سيتا" عند اتخاذه لأي قرار سياسي. ويتجلى ذلك في كل حوارات "سيتا" في المسرحية التي يتبين فيها ليس فقط ذكاء وفطنة المرأة، بل أيضا نشاطها الذي يمكنها من قراءة تصور وأفكار شريكها في الحوار.^{٤٧}

هذه الصفات والأنشطة المتنوعة غير المعتادة للمرأة المسلمة في تصور الجمهور آنذاك مكنت من شد انتباهه وإثارته. إضافة إلى ذلك فقد استطاعت "سيتا" بحنكتها وخبرتها أن تلعب دورا مهما في التوفيق بين دورها في إعطاء اقتراحاتها وتصوراتها حول العديد من الأمور في مشاهد عدة، ودورها الاستشاري كناصحة لأخيها صلاح الدين، وذلك في تناغم تام. و من بين أهم نصائح "سيتا" لأخيها انطلاقا من خبرتها وتجربتها السياسية نذكر اقتراحها طلب تصور التاجر اليهودي "ناتان" للأزمة المالية، حيث قامت بتجميع بعض المعطيات حوله انطلاقا من التقرير الذي أعده "الحافي" حول التاجر اليهودي "ناتان" حيث تقول:

"تتحرك دوابه في كل الشوارع، تجر بشكل همجي قواربه تقع في كل الموانئ.

يقول "الحافي" شخصيا/ هذا يريحني، مبهج تماما، مضيافا، كم هذا عظيم وعريق/ صديقه يستخدم، الحكيم والكادح/ ليمتلك كل صغيرة غير منتبه:/ مضيافا، كيف هو حر في أحكامه المسبقة/ روحه، وقلبه منفتحان على كل فضيلة/ كم هو متفق مع كل ما يمكن أن يكون جميلا".^{٤٨}

تتزايد ثقة "سيتا" بنفسها كلما صدقت في إدراكها الهادئ والسريع للأحداث والأوضاع السياسية. إضافة إلى ذلك ف"سيتا" تفكر دائما في الأوضاع الإنسانية للفقراء، حيث كانت تنبذ العنف بكل أشكاله بهدف استتباب الأمن في بلاد المسلمين، وفي هذا الباب كانت دائمة النصح لأخيها بعدم معاملة الناس باحتقار وانعدام الضمير، وهذا ما يمكننا استخلاصه من الحوار الآتي: " نعم ما هو العنف/ بالنسبة لك؟ النار والسيوف؟ لا، لا/ لماذا يحتاج المرء إلى العنف مع الضعفاء، لضعفهم؟ تقدم إلى الأمام/ اجلس فقط معي/ في حرمي، لتستمع لمعني، اشتريتها البارحة (...) تقدم".^{٤٩}

46- Thomas Möbius- Erläuterung zu Gotthold Ephraim Lessing - Nathan der Weise- Hofffeld. 2005- p. 73

47- Karl Josef Kuschel- Jud, Christ und Muselmann vereinigt- 2004- p. 104

48-Gotthold Ephraim Lessing - Nathan der Weise- Ein dramatisches Gedicht in fünf Aufzügen- p. 52- 53

49- Ibid- p. 53

يتجلى التأثير المباشر لـ "سيتا" على قرارات أخيها في اللقاء الذي جمعه بالتاجر اليهودي "ناتان"، حيث نجد في الفصل الثالث من المسرحية أنه على الرغم من أن صلاح الدين كان واثقا من نفسه وتصوره حول الموضوع المطروح للنقاش في هذا اللقاء، إلا أنه أراد مساهمة أخته "سيتا" في تصوره لدوائها وحكمتها في التفاوض، حيث وضح صلاح الدين لأخته كيفية مفاوضته للتاجر اليهودي "ناتان"، لكي يحصل منه على الدعم الممكن لحل الأزمة المالية. يقول صلاح الدين في هذا الباب:

"سأعتني فقط بالأمر الرائع واللاذع/ سيتحطم كل شيء في يدي/ يريد أن ينجز، مثل ما ابتكر:/ بكل ذكاء مهارة.. فعلا تريدني فعلا فقط تريدين ! أن أرقص، كيف ما أستطيع:/ سأستطيع فعله حقا/ أفضل- سيئ/ أحسن". ترد عليه "سيتا" قائلة: "ثق بنفسك بشكل كبير! أنا رهن إشارتك لأجلك! عندما تريد أنت فقط:/ الرجال يريدون التحدث بكل سرور لأمثالهم، فقط بالسيف/ سيفك حملته بعيدا/ الأسد يستحي حقا، عندما يصطاد مع الثعلب ...".⁵⁰

إضافة إلى كل ما سلف ذكره يتضح أن "ليسنج" يثمن قيمة المساواة بين الرجل والمرأة من خلال حوارات صلاح الدين و"سيتا" ومساهمتهما في الحياة السياسية انطلاقا من الضوابط الإسلامية. ويتجلى ذلك من خلال تصور "ليسنج" لمشهد لقاء صلاح الدين بالتاجر اليهودي "ناتان"، حيث طلب صلاح الدين وفقا للأسس الإسلامية من أخته "سيتا" الجلوس في غرفة جانبية، لأن له زيارة من غريب عن البيت. لكن بعد مجيء "ناتان" رفقة ابنته "ريشا" التي رباها تربية مسيحية، أخذت "سيتا" المبادرة واستقبلت "ريشا" بهجة وسرور في قصر أخيها صلاح الدين. وبفضل خبرة "سيتا" في أمور الحياة السياسية والاجتماعية كامرأة قوية وودودة في الوقت نفسه أمعنت النظر في طبيعة العلاقة الممكنة بين "ريشا" و"فارس المعبد"، حيث اكتشفت أنهما إخوة. وتتوالى الأحداث حيث تم اكتشاف أن كلا من "ريشا" و"فارس المعبد" ليسا فقط أخوين، وإنما هما ابنا "الأسد" أخ كل من صلاح الدين و"سيتا"، أي أن "سيتا" عمتهما وصلاح الدين عمهما. وهذا ما يتضح جليا من خلال رد فعل "سيتا" في آخر فصل من المسرحية، حيث تقول مندهشة: "ماذا أسمع؟ أيمن أن يكون هناك شيء آخ؟!".⁵¹

خاتمة:

انطلاقا من كل ما سلف ذكره يمكن القول إن إثارة "ليسنج" لموضوع مقارنة الأديان كان الهدف منه مد جسر التواصل بين الأديان السماوية الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام. إن نظرة "ليسنج" للأديان وخصوصا الإسلام كانت نظرة نابعة من فكر متنور منفتح، فكر يؤمن بالحوار والتعايش مع الآخر، وهذا ليس بالغريب عن فيلسوف وأديب مؤمن بالأفكار التنويرية المتسامحة.

50- Gotthold Ephraim Lessing - Nathan der Weise- Ein dramatisches Gedicht in fünf Aufzügen- p. ٧٩
51- Ibid- p. 159

وتأسيسا على ذلك يمكننا استنتاج أن "السينج" أراد أن يزرع في القارئ والمتفرج قيم محبة الآخر وتقبله كما هو بغض النظر عن عقيدته أو هياته أو انتمائه الجغرافي، حيث يحث على الابتعاد عن استعمال الشر تجاه الآخر المغاير. كما يمكننا استنتاج أن "اليسنج" يدعو بالحاح شديد إلى البحث في أغوار مفاهيم ومصطلحات من قبيل التسامح، حقيقة الأشياء، حرية المعرفة ثم العدالة.

وهكذا يمكننا القول إن "اليسنج" ساهم، في وبشكل كبير، في إعطاء صورة إيجابية عن الإسلام بصفة عامة وعن المرأة المسلمة بصفة خاصة بعيدة كل البعد عن التعصب الديني في قالب درامي متميز.

وخلافا لما يدعيه البعض فإن "اليسنج" تناول صورة المرأة المسلمة من زاوية محايدة، بل وأعطاهم مكانة خاصة من خلال شخصيات المسرحية وأحداثها، وخير دليل على ذلك الرمزية التي أعطاها من خلال أهم مشاهد المسرحية، حيث لعبت دورا هاما في التواصل مع كل شخصيات المسرحية وتكتلهم، حيث أراد "اليسنج" أن يجعل ذلك التكتل بمثابة النموذج للمجتمع والبشرية جمعاء.